صك الكرامة !..

« هذه القصص ليست كلها حقائق وليست كلها أساطير ولكنها مزيج من الاثنين . . . فيها جذور من وقائع تاريخية وفيها شيء من خيال الرواة . . . لكنها على كل حال تعرض لوناً من أدبنا الشعبي »

يا لتصاريف القدر . . .

ويا لتقلب الأيام . . .

أبو صالح هـــذا الذى تراه يسير الهوينا ، مطرقا برأسه إلى الأرض يجر عصاه جراً ، كان من أعيان البلد وكبرائها ، وكانت مرافق تجارته تمتد على طول الخليج من البصرة إلى كراجى وموانىء الهند الأخرى وكان صيته البعيد يدوى فى أنحاء البلاد ، ودار ضيافته كدور الأمراء ، ولقد جمع عريض الثراء إلى رفيع الجاه فكان له محل لايرتقى بجانب الحكام والولاة ، كم خلص مظلوما من ظالم وكم أقال عثرة كريم وكم أعز عزيز قوم ذل ، وكم بسط كفه بالمكرمات ... لكن الدنيا التى لا تبقى على مسرات ولا على أحزان لم تبق على دنيا أبى صالح فقلب له الدهر ظهر المجن وأزورت عنه أم دفـــر ، وجاءت كارثته على شكل خسائر يتلو بعضها بعضا حتى أفلس فجأة ، وغدا بين يوم وليلة لايملك من الحطام الفانى سوى دار سكناه ، داره التى يمثل خياله على مسرحها أيام العز . . . ودافع أبو صالح عن بيعها بكل ما أوتى من قوة وأقسم جهـــد أيمانه أن لن يخرج منها أبداً . . . عجبا ! وكيف يتخلى عن مغنى صباه ، ومرتع شبابه ومكتنف دنياه ، التى كانت عريضة ؟ لقد تنازل عن كل شيء ، عن بقايا الجاه ، وبقايا المال ، وبقايا السلع . ولكنه لن يتنازل عن داره العزيزة مهما ساءت الحال ، أيتنازل امرؤ عن ماضيه ؟ . . .

وأبو صالح يرجوك أن لاتسأله عن حاله مع أصدقاء وأقارب الأمس فان هؤلاء ذهبوا مع الأمس الذاهب ، كان آخر مرة رآهم فيها حين تلقوا منه خبر مأساته ثم انصرفوا عنه لايلوون على شيء ، ولم يفاجأ بعزوفهم عنه ، فقد كان حكيما يدرك مدى صداقتهم تلك من قبل ، ولكنه صادقهم تمشياً مع طبائع الأشياء . . .

وبقى أبو صالح يقـــاوم قسوة الحياة . . لكن الحال زادت سوء ، واسودت الدنيا فى عينيه حين تناهى إلى مسمعه نحيب امرأته وبكاء أولاده الصغار يشكون الجوع ، هذا الطارىء الغريب الذى لم يكونوا يعرفونه إلا سماعاً ، ويتذمرون لهذا العرى أو مايشبهه وهم الذين لم يألفوه ، إلا حين ينظرون إلى أبناء المساكين فى الطرقات . .

وكانت ليلة . . . قالت له أم صالح إن الصبر قد نفد ، ولم يعد من المستطاع السكوت على هذه الحالة المؤلمة ، ولو أن الأمر مقصور على وعليك لهان ، ولكن الجوع الكافر يكاد يقضى على الصغار ولا سبيل إلى تجاهل الواقع ، ولم يبق إلا أن تذهب إلى صديقك عبد الرحمن فتقترض منه ما يتبلغ به الأطفال الجياع . .

واخترقت لفظة « اقترض » أذن صاحبنا اختراق الرصاصة ، وفزع كأنه لم يسمع بهذه الكلمة من قبل ، هو يقترض من عبد الرحمن ؟! يالقسوة أم صالح ، لقد حزت فى نفسه تلك الكلمة كما لم تحز فيها كلمة أخرى ، إنه لم يشعر بالأسى واللوعة لكل تلك المصائب التى حلت به تترى بقدر ماشعر بمرارة هذه اللفظة البغيضة التى انطلقت من فم أم صالح فى بساطة ، هذا كثير !.

ولكن الأيام أعنى من أن تقاوم ، لذلك أرغم أبو صالح على الخروج حيث رأيناه يسير الهوينا مطرقا إلى الأرض يجر عصاه جراً قاصداً بيت صديقه عبد الرحمن ... وتلقاه صديقه مرحبا هاشا وأخذ يحادثه .

— مرحبا بك يا أباصالح .. لاأراك جئت فى مثل هذا الوقت إلا لأمر ؟ .

وأبو صالح لا يعرف اللف حول الموضوع فدلف إليه مباشرة ، ودون مقدمة ، وشرح لصديقه حاله وسأله حاجته فى غصة وألم مكبوت ، فطيب عبد الرحمن خاطره وقال له :

— ولكن المبلغ يا صديق كبير وأنت الآن بلغت عمـــراً أرجو أن يطول فهل لك أن تأتمنى على رهان ..

رهان ! . . هـذا مالم يفكر فيه ، بيد أنه على كل حال خير رد ينتظر ، فلقد كان يخشى أن يجابه بالرفض الصراح وهو الخزى بعينه ، أما أن يطلب منه عبد الرحمن رهانا فهـــذا حق ... لكن هل بقى لديه ما يرتهن ؟ إن الكارثة لم تبق له شروى نقير . . وأطرق صاحبنا يفكر . . . ورفع رأسه بعد قليل فى انتباه كمن وجد حلا أيرضى عبد الرحمن ياترى ؟ . . وهل لما فكر فيه من رهان قيمة الصكوك والسندات ؟ وإذا رفض ؟ ياويلتاه !!

ويندفع صاحبنا يتكلم فى خفوت .

— يا عبد الرحمن ، أنت تعلم أننى نكبت . . . وأننى غدوت لا أملك شيئا ، ولو كان عندى ما يرتهن لبعته وأكتفيت ، ولكن . . .

وتوقف . . ياللذل . . بيد أن الموقف لم يعد يتسع للتردد . . هيا . . نتف شعرة من لحيته التى اختلط سواد شعرها ببياضه فى اتساق جليل ثم لف الشعرة فى ورقة نظيفة وقدمها فى وقار إلى عبد الرحمن وهو يتمتم :

— هذا رهانى أيها الصديق .

أخذ عبد الرحمن دهشة واستغرابا ، ماذا ؟ شعرة ! وكيف ؟ أسمع أحد عن شعرة ترتهن ؟ هذا غريب ، لكنه ردد وقد استولى عليه شعور بالأريحية :

— آه . . بكل سرور ، تفضل . .

* * *

ودورة الأيام والليالى تقضى على مديد الأعمار . . .

عندما حضرت أبا صالح الوفاة سأله من حوله أن يوصى فان الدنيا دار بوار ، فقال إنه لا شىء لديه يستحق أن يوصى به . . بيد أنه تذكر فجأة شيئا ... فطلب منهم أن يأتوه بصديقه عبد الرحمن ، فلما أتاه مسرعا وانحنى على فراشه همس إليه :

— إذهب وائتنى بالأمانة وسأرد إليك دينك حالا . . .

فلما أتاه صديقه بالأمانة الكريمة قبض عليها أبو صالح بيد مرتجفة ، وألقى عليها نظرة عجلى ثم ألقاها فى الموقد المشتعل ، ومد يده إلى عبد الرحمن وفيها صك التملك للبيت العتيد . . البيت الذى ناضل دونه حتى الموت يقدمه راضيا مغتبطا أداء لكرامته تمثلها هذه الشعرة التى لم تعد شعرة عادية بل عنوانا لكرامة رجل نبيل . . .

وأشار المحتضر بحشرج والدمع يجول فى عينيه اللتين راحتا تنظران فى غبطة إلى الشعرة وهى تحترق . . .

— يا أبا عبد الرحمن ، لك أن تبيع الدار وتأخذ من ثمنها ماأقرضته منك . ولتتقبل شكرى الجم و . . .

. . . وأسلم الروح ؟

حمانا — لبنان

فهد الدويرى

قال ابن التعاويذى (المتوفى عام ٥٨٣) من أبيات وجهها إلى الخليفة الناصر لدين الله يلتمس منه نقل رزقه بديوان الانشاء إلى أولاده بعد ماعمى :

ياملكا يروع الحوادث والأيا	م عن ظلمها فترتدع
ومن له أنعم مكررة	لنا مصيف فيها ومرتبع
أرضى قد أجدبت وليس لمن	أجدب يوماً سواك منتجع
ولى عيال لادر درهم	قد أكلوا دهرهم وما شبعوا
إذا رأونى ذا ثروة جلسوا	حولى ومالوا إلى واجتمعوا
وطالما قطعوا حبالى إعر	اضاً إذا لم يكن معى قطع
يمشون حولى شتى كأنهم	عقارب كلما سعوا لسعوا